

الهطاية في تونس 1881 – 1956

الخلفيات الإقتصادية و الإجتماعية

عروسية التركي.

باحثة.

تتنزل هذه الدراسة في إطار التاريخ الإجتماعي وهو مجال صعب المراس نظرا إلى اختلاف تحديد إشكالياته من مؤرخ إلى آخر¹ و بالتحديد ضمن علم الإجتماعي الريفي، بما أنها مبحث في التفاعل الإجتماعي الذي يجري في المجتمع الريفي و العلاقات الإجتماعية الريفية، بوصفها مجالا متخصصا من مجالات الدراسة السوسيولوجية العامة²، و لكن من منظور تاريخي يحاول فهم التغيرات الإجتماعية و الإقتصادية في الريف التونسي، بوصفها ظواهر بطيئة التطور. فهذه الدراسة تهتم بفئة من "المغبيين"، المهمشين، ممن كانوا يشاركون في الهجرة الموسمية، تحت وطأة قسوة الظروف الطبيعية، و الذين ازدادوا تهميشا بفعل التسرب الرأسمالي الأوروبي إلى البلاد، ما بين سنة 1881 إلى سنة 1956، وهي مساحة زمنية لها أهمية في حركة الفرد التونسي، لما طرأ على المجتمع من تحولات إقتصادية و اجتماعية بفعل عوامل داخلية و أخرى خارجية.

و من الواضح أن هناك ندرة شديدة في الدراسات التاريخية السوسيولوجية المختصة في الأوضاع الإجتماعية لليد العاملة الفلاحية في الأرياف التونسية، بصورة عامة، باستثناء عدد قليل منها تعرض إلى أوضاع بعض أصناف من هؤلاء العمال، في علاقة بنمط الاستغلال غير مباشر³. وتزداد الدراسات و البيانات شحا، في ما يتعلق بالهطاية⁴. فهل الهطاية تندرج

¹ - الهادي التيمومي، تاريخ تونس الإجتماعي 1881-1956، دار محمد علي الحامي، صفاقس - تونس، الطبعة الثانية، 2000، ص5.

² - محمود عودة، دراسات في علم الاجتماع الريفي، الإسكندرية - مصر، 1992، ص 3.

³ - الهادي التيمومي، الاستعمار الرأسمالي و التشكيلات الإجتماعية ما قبل الرأسمالية، الكادحون "الخماسة" في الأرياف التونسية " (1861-1943)، دار محمد علي الحامي، كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية، صفاقس - تونس، 1998-1999.

ضمن هيكله ونسيج المجتمع الريفي؟ أو أنها ظاهرة ظرفية ترتبط بالمعطيات الطبيعية بالوسط و الجنوب التونسي، أو هي علاقة وظيفية ترتبط بجوانب النسق و البناء الإجتماعي الكلي الذي تنتمي إليه؟ ما الفرق بين الهطاية والانتجاع و العشابة...؟ ما هي التطورات التي عرفتتها هذه الظاهرة في ظل نظام الحماية الفرنسية من 1881 إلى 1956؟

1- التعريف بالهطاية:

جاءت في المنجد في اللغة و الإعلام كلمة هط الرجل بمعنى أسرع في المشي أو أسرع في العمل⁵.

ومن المتعارف عليه أن كلمة الهطاية تعني تنقلات الأفراد من قبائل الوسط والجنوب في اتجاه الشمال للمشاركة في الحصاد⁶، فهي نزوح مؤقت نحو مناطق الشمال الخصبة للعمل صيفا بحقول القمح، ولذا كثيرا ما تستعمل كلمة الهطاية للدلالة على القبائل الرحل و شبه الرحل ، في نقيض لكلمة الوطنانية التي تشير إلى السكان المستقرين. ولكن في الواقع الهطاية

— سامي البرقاوي، الملكية العقارية وعلاقات الإنتاج بجهة تونس من 1875 إلى 1914، جامعة الوسط، دار المعلمين العليا بسوسة، 1989.

— عبد الحميد هنية، "الملكية و الأسرة عند بعض القبائل التونسية"، في الكراسات التونسية 121 — 122 لسنة 1982، الثلاثية الرابعة.

— الكراي القسنطيني، الأرياف المحلية والرأسمال الاستعماري ظهور صفاقس (1892-1929)، منشورات كلية الآداب بـمنوبة، تونس، 1992.

Chérif (M.H); Propriété des oliviers au Sahel des débuts de XVIIe à ceux du XIXe siècle, in Actes du premier congrès d'histoire et de la civilisation du Maghreb. Publication du C.E.R.E.S, Tunis, 1979, t2.

محمد الهادي الشريف: ملكية الزياتين بالساحل من بدايات القرن 17 إلى بدايات القرن 19. أعمال الملتقى الأول حول تاريخ المغرب العربي وحضارته. منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية تونس، 1979، الجزء الثاني.

⁴ — الأرشيف الوطني و الأرشيف الفرنسي: مراسلات القيادة و تقارير الإقامة العامة عن السكان ، و عن حراكهم في فترات الأزمات ، إضافة إلى بعض نشرات خاصة الصادرة عن إدارة الفلاحة.

⁵ — المنجد في اللغة و الإعلام ، دار المشرق ببيروت — لبنان ، الطبعة العشرون 1986 ص 867. ومن الملاحظ غياب هذه الكلمة من كتاب لسان العرب المحيط لابن منظور ، دار لسان العرب، بيروت، 1975.

⁶ — الهادي التيمومي ، تاريخ تونس الإجتماعي ... مصدر سابق ص 20.

هي "ترحال شغل" كما يسميها جان ديبوا (Despois)⁷ ، و مظهر من مظاهر النزوح المؤقت الذي كانت تمارسه قبائل الوسط و الجنوب باتجاه الشمال الخصيب منذ القديم .

ومن هنا تكمن صعوبة التمييز بينها و بين ظواهر أخرى من الترحال كالانتجاع و العشابة و العزابة... و لكن بالتدقيق في هذه الظواهر، نتبين أن الانتجاع أو النجعة تعني طلب الكلإ في مواضعه، وهي مشتقة من النجوع ، و النجع هو بيت من الشعر. و بإعتبار النجعة ظاهرة إجتماعية تدل على العروش المتنقلة⁸، بحيث ينتقل العرش (بالمعنى الموسع) بأغنيائه و فقرائه و نسائه و أطفاله ، و قطيعه ودوابه بحثا عن موارد إضافية، تجعلهم في مأمن من الفاقة و البؤس .

أما العشابة فهي مشتقة من كلمة عشب، يقال أعشب القوم أي أصابوا العشب ، و العشابة في تونس هي الانتقال نحو الشمال لرعي قطعة من الأرض وفقا لصيغ اتفاق مع مالكة⁹، فهي تعني نقل القطيع إلى المرعى من مناطق الوسط و الجنوب باتجاه أماكن العشب و الماء بالشمال، في نطاق التبادل بين القبائل .

إذا ترسل "كراع" قبائل الشمال إلى الوسط و الجنوب في الشتاء، و هو ما خلق نوعا من التكامل الإقتصادي والمناخي بين المناطق القاحلة ومناطق الثل بالبلاد التونسية¹⁰، و بدخول الاقتصاد النقدي ظهرت عملية الكراء، " فصاحب القطيع يكتري المرعى و يدفع مبلغا حسب عدد رؤوس الأغنام، أو يتم الاتفاق حسب مساحة الأرض المخصصة لذلك"¹¹ و يسمى الراعي الذي يقود العديد من قطعان الماشية مجتمعة في اتجاه المراعي الخصبة بالشمال بقائد

⁷ Despois (J); "La fixation des bédouins des steppes de la Tunisie Orientale", in Revue tunisienne 1953,-
pp 347-359.

— ديبوا ، " توطين بدو السباسب بتونس الشرقية "، المجلة التونسية ، 1953، صص 347—359.

⁸ — فتحي السير ، قبائل أقصى الجنوب التونسي تحت الإدارة العسكرية الفرنسية ، و رغم نموذجا 1881—1939 ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي و المعلومات ، زغوان — تونس 1998 ، ص 18 .

⁹ — Laroussi Amri : Pour une sociologie des ruptures , la Tribu au Magreb médiéval, université de Tunis I , 1997, p263.

— العروسي العامري ، القبيلة في المغرب العربي الوسيط، جامعة تونس الأولى ، 1997، ص 263.

¹⁰ — Clarke (J) "les problèmes du nomadisme estival vers le nord de la Tunisie", Bulletin de l'Association des géographes français, 1952, N°226, pp134-141.

كلارك (جون) ، "مشاكل الترحال الصيفي نحو الشمال التونسي"، النشرة الفرنسية للجمعيات الجغرافية، 1952

برقم 226، صص 134—141 .

¹¹ — البشير العربي ، حفريات سوسيوولوجية في ماضي قبيلة بني زيد ، دار سحر ، تونس ، د.ت، ص 65 .

العزيب¹². و قد استعملت لفظة عزابة لقبا لكل من لازم الطريق و طلب العلم و سير أهل الخير و حافظ عليها و عمل بها فان حصد جميع هذه الصفات سمي عزابيا¹³. أما الهطاية فتعني ترحال الحاصدين للعمل بمقابل عيني، أي بعشر (1/10) ما يحصدون، و هو ما يمثل مؤنثهم من الحبوب أساس غذائهم¹⁴ فالهطاية إذن هي هجرة قصيرة الأمد تدوم شهرين أو ثلاث في الصيف، تتحول خلالها اليد العاملة الزراعية إلى مراكز العمل الموسمي قصد الحصاد، و عندما تنتهي الأعمال يعودون إلى مضاربهم، فهي حراك سكاني من الريف إلى الريف في إطار البحث عن موارد إضافية مكملة. وهي تحدد حسب الغاية منها .

و من هنا قد تجمع النُجعة بين ممارسة العشابة و الهطاية في ذات الوقت رغم خصوصية كل ظاهرة من هذه الظواهر. فمن هم الذين تشملهم الهطاية؟

لا يخلو هذا الموضوع من عدة صعوبات، باعتباره قاسما مشتركا بين عدة مباحث: مبحث التهميش، مبحث الفقر، مبحث الهجرة الداخلية و مبحث العلاقات الاقتصادية و الإجتماعية التي تجعل مجال الانتاج لا يخضع للحدود الإدارية بل لحدود التحالفات القبلية¹⁵، كما لا يقف مجال تحركات الهطاية عند حدود البلد الواحد بل تشمل الهطاية أقاليم قاحلة و شبه القاحلة في اتجاه أقاليم الشمال الخصبة و الأماكن الممطرة في الجزائر و تونس و طرابلس¹⁶. و بالاطلاع على الأرشيف الوطني و من خلال استجواب

¹² - الهادي التيمومي "خصوصيات مسيرة تونس نحو الحداثة " 1846 - 1864، في ملتقى تونس الأمس و تونس الغد، طيب الحكمة، قرطاج تونس ، 2002 ص 43 .

¹³ - فرحات الجعبري، نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة، نشر المعهد القومي للآثار و الفنون، تونس، 1975، ص 63.

¹⁴ - Omerani Salah, Le territoire de Beni Zid (sud tunisien): Mode de production et organisation de l'espace en zone aride, Thèse de Doctorat de 3^{ème} cycle, Université, Montpellier III, janvier 1982, pp 106-107.

- صالح عمراني ، أراضي بني زيد (الجنوب التونسي) نمط الإنتاج و تنظيم المجال في منطقة قاحلة، أطروحة مرحلة ثالثة ، جامعة موبيلي III، جانفي 1982، صص 106-107.

¹⁵ - ATTIA Habib, Les hautes steppes tunisiennes, de la société pastorale à la société paysanne ,Thèse de géographie, Université de Paris VII, 1977, p260.

- حبيب عطية ، السباسب العليا من المجتمع الرعوي إلى المجتمع الزراعي ، أطروحة في الجغرافيا ، جامعة باريس VII، ص 260 .

¹⁶ - المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية ، أرشيف الإقامة العامة ، فهرس القبائل ، البكرة 615 ، الكرتون 115 ص 121.

الذين مارسوا هذه الظاهرة ، يبدو أن حجم الهطاية يرتبط بمؤشر أوضاع المناخ في جهتهم فيرتفع عددهم في سنوات الجفاف، وينخفض في سنوات الرخاء، ويدل ذلك على أن الفلاحة الموسمية في الجنوب التونسي، رغم ضعف مردودها، تبقى من أولويات المهاجرين، لارتباط العمل الزراعي و فلاحه الأرض بالقيم الثقافية الراسخة، و الهطاية هجرة عائلية إن لم نقل شمولية¹⁷، و أنها تنتشر في صفوف البدو الرحل أو شبه الرحل، و أن الذين يشاركون فيها هم أكثر أفراد القبائل فقرا، حيث ينتقل هؤلاء بخيامهم و بعائلاتهم نحو الشمال للحصاد لدى مالكي حقول الحبوب .

و في سنوات ضعف الإنتاج كسنة 1948 وصل عدد هؤلاء العملة الموسمين إلى 1500 نفر من منطقة بني زيد وحدها¹⁸. كما يشارك في عملية الهطاية ما يقارب عن 3/4 الفلاحين الذين لا تقي فلاحتهم بحاجاتهم خاصة في سنين القحط. و يشترك البعض من الهطاية في كسب جمل أو حمار أو حصان، لاستغلال هذه الدواب في التنقل و توظيفها في جلب الماء من الآبار، و حمل المنتج (الحبوب)، و " الدريسة " . أما الأطفال فيجمعون ما سقط من السنابل، و عادة ما يتنازل صاحب الحقل عما يجمعه الأطفال من بقايا في أعقاب "الحصيدة"، و لكن في بعض الأحيان يطالب بنصيبه منها¹⁹. أما المرأة فتشارك الرجل في عملية الحصاد طيلة النهار، إضافة إلى خياطة العشة (المسكن)، و طحن الحبوب و إعداد الطعام. وقد يقتاتون من التين الشوكي (الهندي) الذي يشترونه من الفلاح .

فالهطاية يقومون بتوفير طعامهم بأنفسهم خلافا للخماس الذي يصطحب عائلته في وقت الحصاد، و الذي يجب على صاحب الأرض إطعامه إبان الحصاد، مثلما هو الحال في وقت الزرع، وإن كانت وظيفة الخماس الأساسية هي الحرث و الزرع فإنه يقوم أيضا بالحصاد و الدرس²⁰، كما يمكن له أن يشغل عمالا فلاحين وقتيين زمن الإنتاج الوافر.

ويتكون مرحول "الهطاية" من عائلات تنتسب إلى بطون قبلية مختلفة، فمثلا في الحامة يشترك في الرحلة عائلات من أولاد خليفة وأولاد غريب وأولاد عقوب إلى بني زيد جانب

¹⁷ - محمد نجيب بو طالب، القبيلة التونسية بين التغيير والاستمرار، الجنوب الشرقي من الاندماج القبلي إلى الاندماج الوطني، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية بتونس، سلسلة علم الاجتماع ، المجلد ، تونس 2002، ص332 و ص324.

¹⁸ - الأرشيف الوطني ، السلسلة أ ، كارتون 132 ، ملف 14 و 48.

* الدريسة : عملية فصل الحبوب عن التين .

¹⁹ - شهادة إحدى المشاركات في الهطاية سنة 1948.

²⁰ - محمد حسن، القبائل و الأرياف المغربية في العصر الوسيط، دار الرياح الأربع للنشر، تونس، 1986، ص50

الزمزمة و الخرجة.... وكلها من عروش بني زيد، تنتقل في مجموعات، وذلك للحفاظ على سلامة أفرادها، و"لأن قادة مجموعة الخيام (الدوار) يوجهون أفراد المجموعة نحو الأماكن المقصودة، وربما يقومون أيضا بالاتفاق مع أصحاب المحاصيل ويحلون المشاكل التي تقع بين مجموعتهم وغيرهم من السكان الأصليين للمناطق المقصودة"²¹. كما يتم الاتفاق على موعد خروج المرحول، ويكون عادة في الصباح الباكر، بحيث تتزود العائلات ببعض المؤونة (العوين)، ويتكون من "سويقة"، تمر، زيت، كسكسى....وتتطلق الرحلة باتجاه "فريقية". وتعد جهة تالة، أكثر، القصرين و الكاف أهم المناطق المقصودة²². وتقطع المسافة على مراحل بمعدل 20 كلم يوميا، و كثيرا ما تسلك خطوط الانتجاع المتعارف عليها. ويبدو أن هذه مسالك تختلف بين القبائل، فتسلك قبائل ورغمة مثلا، أراضي الحزم في اتجاه سهول القيروان، و منها نحو المناطق التلية، أما قبائل بني زيد فعادة ما تسلك خط قفصة، القصرين تالة القلعة الجردة، تاجروين، وفي بعض الأحيان خط المكناسي، بئر الحفي، سبيطلة، الروحية فالدهماني²³.

و لا تقف مسالك الترحال عند حدود الإيالة للتونسية ، فقد يتجه "المرحول" نحو الغرب، أي نحو الجزائر، أو نحو الشرق باتجاه "قبلة"(الظهر التونسي و ليبيا)، حسب الأرض المطيرة طبقا لعلاقات التحالف، و حتى علاقات هيمنة، مثل حال جبالية مطماطة²⁴، و في بعض الأحيان وفقا لعلاقات تبعية شرفية، أو قوة إقتصادية وعسكرية، أو كريسما دينية، أو شراكه و زبونية (clientelisme).

وعموما فهذه الرحلة محكومة بتوفر العمل، و تقول إحدى المستجوبات من الحامة: "نحط على الجمال ونمشي من بلاد إلى أخرى (من منطقة إلى أخرى)".

و تقطع الرحلة ما بين 300 و 350 كلم سيرا على الأقدام، و يكون خلالها النازحون عرضة للعطش و التعب والأمراض ،و قد تلد المرأة في الطريق، و كثيرا ما تكون هي

21- البشير العربي، خفريات....مصدر سابق، ص56 .

22- الأرشيف الوطني، سلسلة أ، كرتون 132، ملف 14 .

23- حسب شهادة المستجوبين من الحامة (صانفة 2002) .

24- Post (G), "Utilisation de la terre et production dans le sud tunisien: Matmata et Oudrna"; in Les Cahiers de Tunisie, 2, 1954 pp 26-68 .

— بروس (جورج)، استعمال الأرض و الإنتاج في الجنوب التونسي :مطماطة و ودرنة " ، الكراسات التونسية 2،

1954 ، ص ص26-68.

و وليدها عرضة للموت. و في حالة الولادة أو المرض الشديد لأحد عناصر المرحول يضطر الجميع لتخيم لمدة يوم أو يومين، ثم السير بعد إقامة "باصور" و هو عبارة عن خيمة قدت من عيدان مشدودة بشريط رقيق (سير) صنع من جلد الجمل، و يسند إلى ذروة البعير، و يغطى بعباءة من الصوف لتحمي النفساء و وليدها، أو المريض من أشعة الشمس .

ولا ننسى أن أجسام هؤلاء المتقنين متدثرة بأسمال بالية، عادة ما تكون هشة و ضعيفة، نتيجة سوء التغذية و الخصاصة التي دفعت بهم للهجرة المؤقتة بعيدا عن ربوعهم، التي انتشر فيها الفقر بنسبة 27 % من مجموع السكان في سنة 1949، و ارتفعت هذه النسبة في بن قردان إلى 41 % ومدنين و تطاوين 50% ، إلى حدود يصير فيها نصف السكان إلى عتبة المجاعة و الإملاق²⁵.

ما هو وضع الهطاية في مناطق الاستقطاب بالشمال التونسي(حقول القمح والشعير)؟

على عكس الانتجاع الرعوي، حيث يتم التنقل عبر مسالك محددة و مراعى معروفة مسبقا، فإن الهطاية أو انتجاع العمل يتم بصورة عشوائية في اتجاه المجهول: "وتى البعاير و الصابة على الله". و يحط المرحول في الأماكن التي توفر العمل لقواه المعروضة، بحيث يتصلون بصاحب العمل، أو هو الذي يتصل بهم، حسب العرض و الطلب، و يتم الاتفاق شفويا بين صاحب العمل ومجموعة الهطاية التي تحصد القمح بمقابل حلة لكل عشرة حلل، و الحلة الواحدة تضم خمس أعمار، والغمر يساوي ما تقدر قبضة اليد على جمعه من سنابل القمح، أما الشعير فيقاس بكيس كبير (الشكارة)، فعلى خمس أكياس يحصل الهطاي على كيس واحدة:

" نمشي هطاي و في الحامة خليت أكبادي "

" نحصد للناس بعشر الله أقوت أولادي "

وفي بعض الأحيان لا يحترم هذا الاتفاق فقد يصل نصيب الهطاي مقابل عشرين حلة لصاحب المنتج و لا سيما في سنوات القحط عندما يرتفع عدد طالبي العمل²⁶. وكان العملة يقومون بالحصاد مجتمعين في مجموعات صغيرة متعاونة تتألف ميدانيا على أساس القدرة على العمل بقطع النظر عن الجنس أو العمر. ويقوم كل فريق من الهطاية بجمع

²⁵- الكراي القسنطيني ، "أزمة ما بعد الحرب أم تآزم اجتماعي : الفقراء بتونس 1949 " ضمن أعمال الندوة الدولية الخامسة حول البلاد التونسية في فترة ما بعد الحرب (1945-1950) ، منشورات المعهد الأعلى للتاريخ الحركة الوطنية ، تونس ، 1991 ، ص82

²⁶- إحدى المستجوبات من الحامة .

نصيبه (القنافيد) ، و يسرجه (يضعه) على دابته ، و يعود به إلى " العشة " حيث يضعه في " المنذرة " (البيدر). و بعد إنهاء الحصاد بالحقل يقوم الهطاي بدرس محصوله ثم ينتقل مع مجموعته إلى حقل آخر و هو ينشد قائلا: " منية فدان و منادر من البعيد تبان بيتي مليان وفي زرعني ندير العشارة ". و يتراوح محصول الهطاي حسب اجتهداه وحسب من يشترك معهم في جمعه (زوجة - أخ - أخت - بنت ...) وعموما يكون المحصول ما بين قفيز أو قفيزين من القمح .

وبعد أيام الحصاد تبدأ رحلة العودة إلى "الأوطان " . و تجنباً لما قد يتعرض له الهطاية من عمليات سرقة ونهب فقد أصبحوا يشحنون محصولهم عبر القطار، مستغلين في ذلك توسيع الاستعمار شبكة السكك الحديدية التي وصلت إلى قابس في 1916 .
فهل استفادت ظاهرة الهطاية من الاستعمار أو تضررت منه ؟

II- تطور ظاهرة الهطاية في العهد الاستعماري :

إن ندرة الدراسات التاريخية السوسولوجية حول الأوضاع الاجتماعية للبد العاملة الفلاحية في الأرياف التونسية، تجعلنا أمام مشكلة أساسية في تحديد المنهجية، فإذا رما النظرية البنائية الوظيفية فإننا قد نقع في بعض القصور، بسبب المنطلقات النظرية لهذا الاتجاه الذي يدرس الواقع الاجتماعي على أنه نظام أبدي لا يعرف التطور و الانتقال إلى وضع جديد²⁷، و بالتالي مجتمع لا تاريخي. أما النظرية الماركسية فلا تخلو أيضا من بعض القصور، كأن تنطلق الدراسة في تحليلها للطبقة الاجتماعية استنادا إلى ملكية وسائل الإنتاج مثل الأرض الزراعية، ومن هنا قد نجانب الحقيقة في تحليلنا للخلفية الإقتصادية و الاجتماعية للهطاية في الريف التونسي، انطلاقا من القياس على نماذج لتطبيق المادية التاريخية على واقع المجتمع التونسي، لنصل إلى عديد التحليلات حول طبيعة علاقات الإنتاج المسيطرة في الحقبة التاريخية الممتدة من نهاية القرن التاسع عشر إلى أواسط القرن العشرين، فهي مرحلة انتقالية من علاقات ما قبل الرأسمالية إلى علاقات شبه إقطاعية - شبه رأسمالية أو رأسمالية، تدرج خلالها الاقتصاد التونسي تحت الإستعمار الفرنسي نحو الاندماج في السوق الرأسمالية

* القنافيد : جمع " قنفودة " لدى سكان الجنوب التونسي و " طنبورة " لدى سكان الشمال ، وهي كلمات تستعمل للدلالة عن مجموعة من السنابل المحصودة (كدس به أربع حلال ما يقارب 20 غمرا) .

* قفيز يعادل 16 وبية أي 2 دكل .

العالمية، و تكسير البنى القبلي وظهور التمايز الطبقي بانتزاع حقوق ملكية الأرض، و تدهور الحرف، و من ثمة تكون العمل المأجور و تراجع التفاعل الهيكلي بين أقاليم الشمال و الوسط و الجنوب .

فمن الواضح أن ظاهرة الهطاية ترتبط أساسا بالواقع الإقتصادي و الاجتماعي لسكان تونس و ليبيا و الجزائر، فهي نتاج التفاوت في المعطيات الطبيعية بين منطقة خصبة تقع شمالا " مخزن حبوب روما"²⁸ و مناطق الوسط و الجنوب القاحلة أو شبه القاحلة، و هي سمة من سمات تقاسم العمل في نطاق مجتمع مغلق قائم على قاعدة فلاحية ذات فوائض إنتاج محدودة، و على مراتب إجتماعية أسسها ثقافة معنوية وليست مراتب طبقية عمادها الثروة ، فالمجموعات القروية المستقرة تملك الأرض بصفة جماعية، و تعمل بصفة جماعية لتسديد حاجيات المجموعة العائلية، وهي تحتقر البدو* الذين يستغلون كخماسة و كيد عاملة، و في ذات الوقت تخافهم، و هذا من شأنه أن يدفع بالقبائل المستقرة إلى التحالف مع قبائل الرحل أو شبه الرحل للاستفادة من دعمها العسكري²⁹. و تبرز علاقات العمل و التبادل بين هذه الأطراف من خلال ظاهرة الانتجاع، بحيث تستفيد المناطق المستقبلية من السداد العضوي، و تنشيط الحركة التجارية، فكثيرا ما يشتري الرحل القمح بأسعار مرتفعة، كما يوفرون يدا عاملة للحصاد، ووسائل نقل للحبوب رخيصة بفضل رجالهم و إيلهم³⁰، و بالمقابل يضمن لهم التكامل مع منطقة الشمال الحصول على مراعي لماشييتهم و مؤونتهم من الحبوب، ولعل هذا ما يفسر بقاء زراعة الحبوب كنشاط ثانوي بالنسبة لسكان الوسط و الجنوب التونسي حتى الحرب العالمية الأولى .

²⁸ - محمد بيرم الخامس، القطر التونسي في صفة الاعتبار بمستودع الأمصار و الأقطار بيت الحكمة، تونس 1989، ص 29.

* البدواة هي نمط الحياة القائم على تنقل الإنسان الدائم في طلب الرزق حول مراكز مؤقتة يتوقف مدى الاستقرار فيها على كمية الموارد المعيشية المتاحة من ناحية و على مدى الأمن الاجتماعي و الطبيعي الذي يمكن أن يتوفر فيها من ناحية، انظر محي الدين صابر و مليكة لويس عوض، البدو و البدواة، مفاهيم و مناهج، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1986، ص 18 .

²⁹ - Laroussi Amri ; op. cit. p 206.

- لعروسي العامري،... مصدر سابق، ص 206 .

³⁰ - Bernard (A) et Lacroix (N); Evolution du nomadisme en Algérie, Paris, 1906, p55

- برنار (أ) و لاكروا (ن) تطور الترحال في الجزائر، باريس، 1906، ص 55.

و من هنا يبدو أن الهطاية مظهر من مظاهر حاجة سكان الأرياف إلى الغير في إطار علاقة الريف بالريف، بينما تبقى العلاقة بين المدينة و ظهيرها علاقة محدودة، نظرا إلى كون المجتمع الريفي ينتج حاجته الضرورية ولا يزيد عنها، فينجر عن ذلك انعدام السوق، إضافة إلى ضعف نسبة الحضر من مجموع السكان التي لا تتجاوز 15% في أواخر القرن التاسع عشر. كما تكشف ظاهرة الهطاية عن الوهن الديمغرافي في البلاد التونسية و الناجم عن المجاعات و الأوبئة و الاضطرابات، و هذا ما يفسر حاجة المناطق ذات الضغط الديمغرافي الخفيف إلى قوى عاملة في ميدان الفلاحة (الزراعة و تربية الماشية)، من البدو و الرحل أو شبه الرحل، وكذلك من خارج البلاد من الجزائر و ليبيا و المغرب الأقصى. و قد يتحول الهطاي إلى مستقر لسبب أو لآخر، فمثلا عائلة الصيود المطوسي و هي أحد فروع قبيلة مطوس النازحة من أقصى الجنوب التونسي، قد إستقرت في "إفرقا" نهائيا، وقد كانت تستغل حوالي 300 هكتار إما عن طريق الخماسة أو الكراء في هتشير الزاوية البكرية، وهو حبس لعائلة محمد الشاذلي البكري من سكان الحاضرة³¹.

فما هي التطورات التي عرفتها الهطاية في ظل نظام الحماية الفرنسية بتونس ؟
إن المنتبغ لظاهرة الهطاية يلاحظ بسهولة أنها علاقة جدلية بين الإنسان و بيئته في بلاد المغرب، حيث ارتبطت عضويا بالحصاد، و بالتالي الحبوب التي تدعت العناية بها نتيجة تطور تجارتها في المتوسط بعد انتشار اقتصاد — العالم، و التقسيم العالمي للعمل في عهد التوسع الاستعماري. إلا أن زراعة الحبوب في جنوب المتوسط مرتبطة أساسا بالمطمار، و التي تميزت بتفاوتها من جهة إلى أخرى، و عدم انتظامها من سنة إلى أخرى، فالجفاف يقلل مساحات الزراعات البعلية و يقضي على قطعان الماشية، و يساهم في تدني إنتاجها و انخفاض أسعارها. و تدفع ظروف الجفاف سكان الجنوب و الوسط إلى البحث عن موارد رزق تكميلية* لتسديد حاجياتهم الغذائية، ومنها الهجرة الموسمية إلى مناطق أخرى، ولا سيما أن موسم الحصاد في الجنوب ينتهي في وقت مبكر نهاية فصل الربيع .

³¹ - علي الهمامي، "أهمية التسويغ في استغلال الأرض بريف مجاز الباب و دوره في بروز المضاربات العقارية من 1860 - 1926 " في "روافد" مجلة المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية ، العدد السادس 2001 ، ص 112.

* و يمكن أن نذكر من موارد رزق تكميلية : الانتجاع الهطاية و القيام بأعمال يدوية (النسيج و صناعة الجلد و الحلفاء) إضافة إلى التجارة المتجولة (الحمار و الشلواق) و في بعض الأحيان المغامرات الحربية (الغزو أو مناصرة ثائر) .

وانطلاقاً من رصد الحالة المناخية المتقلبة، و المتسمة بتناوب سنوات ممطرة وأخرى جافة، يمكن التمييز بين مستويات مختلفة للهطاية من حيث إرتفاع نسقها أو تباطؤها، فحدة تدفق الهطاية تتناسب طرذا مع صعوبة الظروف الطبيعية، خاصة في سنوات الجفاف (1927 - 1928، 1936، 1946 - 1948...) فمثلاً جاءت في رسالة قائد تطاوين إلى الوزير الأول سنة 1947، شكوى من الجفاف الذي أدى ببعض الفلاحين إلى الهجرة نحو الشمال، لذلك يطلب منه إعفاء المنطقة من دفع الضرائب³².

وإن كانت الهطاية مرغوبا فيها حتى 1920، لأنها تناسب على حد سواء المزارعين بمنطقة التل و أهالي السباسب الرحل، حسب الأشغال الزراعية، فقد تفاقم أمرها في أواسط الثلاثينات و الأربعينيات تحت تأثير الأزمات الاقتصادية و المحلية و العالمية، و اتخذت شكل نزوح أفواج من اليد العاملة و المساكن الفارين من الجفاف و المجاعات، و اكتساحهم لمناطق الشمال بحثا عن شغل لا يتوفر، إذ كانت نتائج موسم الحصاد لسنة 1936 مفاجئة بسبب الجفاف³³. ومن الملاحظ أنه منذ العشرينات من القرن الفارط لم تعد ظاهرة الهطاية رهينة الجفاف، وإن كان هذا العامل يزيد في حدة الحراك السكاني عبر المجال الجغرافي و القبلي، كما لم تعد الهطاية نوعا من التأمين الإجتماعي ضد الكوارث الطبيعية، بل امتزجت هذه الظاهرة بعوامل جديدة أفرزها التدخل الاستعماري، لتكشف عن أزمة الأرياف التونسية نتيجة تقويض علاقات الإنتاج التقليدية التي كانت تربط بين الملاك و قوى الإنتاج، و تعويضها بنمط جديد من العلاقات القائمة بين رأس المال و العمل، و التي تستند إلى طرق الاستغلال المباشر للأرض، و استخدام المكننة، و العمل بالأجر، مما أدى إلى تقلص مواطن الشغل في القطاع الفلاحي، و تفشي ظاهرة البطالة " فلم تعد الفلاحة مهنة بقدر ما أصبحت نوعا من العطالة"³⁴. وقد ولد هذا أزمة ريفية زاد في حداثتها ارتفاع وتيرة النمو الديمغرافي، و تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينات، فكانت النتيجة تنامي انسياب العملة الموسمين من

32- الأرشيف الوطني ، سلسلة A ، كرتون 176 ، ملف 5.

33- الأرشيف الوطني ، سلسلة E ، كرتون 226 ، الملف العاشر .

34- Bourdieu (Pierre) et Sayade (Abdel malek); Le déracinement, la crise de l'agriculture traditionnelle en Algérie, Editions Minuit, 1964..

-بورديو (بيار) و صياد (عبد المالك) إنبات الفلاحة التقليدية و تآزمها في الجزائر ، منشورات منوي ، 1964 .

جهات الوسط والجنوب نحو الشمال، رغم تضالول الحاجة إلى اليد العاملة³⁵. وفي بعض من الأحيان كانت تلك التحركات مصحوبة بعمليات نهب وسطو والتجاء إلى التسول، وهو ما لم يكن معهودا في تنقلات الهطاية سابقا، إذ كان المرحول يخضع لمجموعة من القوانين العرفية تحدد مواقع المكوث، وثقافة التعامل فيما بين أفرادهم ومع غيرهم. فعلى سبيل المثال يقول ضابط شؤون الأهلية ماکار (Macquart) عن أولاد شهيدة الذين كانوا يهاجرون إلى الشمال الغربي للعمل في الحقول في مواسم الخصب الشمالي و الجذب الجنوبي : "إنهم مطلوبون جدا من قبل الفلاحين الكبار بالشمال لتمييزهم بالطيبة و الطبع الهادي"³⁶ ألا أن الهطاية منذ العقد الثالث من القرن العشرين بدأ نسقها بالتراجع باستثناء في 1936 تحت التأثير المزدوج للجفاف ومخلفات أزمة 1929 العالمية و إضافي سنة 1946-1948 بسبب الجفاف وظرفية الحرب العالمية الثانية و التي دارت بعض أحداثها على الأراضي التونسية كما أصبحت هذه الظاهرة مبعثا للقلق. فقد جاء في رسالة عامل سوق الخميس بتاريخ 24 جوان 1933 إلى الوزير الأكبر: "أعلم جنابكم أن البدو الرحل القادمين من الوسط و الجنوب كان قلة هذه السنة في دائرتنا بسبب الآلة حيث لا يجدون عملا إلا في أربع مشيخات جبلية يتعذر فيها استعمال الآلات بدلا من اليد العاملة"³⁷. ففي هذه الرسالة إشارة إلى التحولات الإجتماعية و الإقتصادية التي ظهرت بمناطق استقبال الهطاية (سهول الزراعات الكبرى) شمال الظهيرية التونسية حيث تم الاستيلاء على الأراضي من قبل المعمرين الأجانب وتحويل نسبة من الفلاحين إلى يد عاملة (بروليتاريا) بسرعة فائقة وفي ذات الوقت استغل المعمرين أراضيهم استغلالا مباشرا و بطرق عصرية فقد قدر ريمان بار (الوزير الأول الفرنسي لاحقا) إن مساحة أراضي القمح التونسية المخدومة بطرق عصرية تساوي 100.000 هكتار في 1954³⁸ أما المنظمة العالمية للتغذية والزراعة فتقدر حسب دراسة ميدانية (1949-1956) أن 632.650 هكتارا الأراضي التونسية مخدومة بالطرق العصرية، ولم يكن المعمرين وحدهم من كان

³⁵ - الكراي القسنطيني ، " بعض المعطيات حول العمال الفلاحين الموسمين بمناطق شمال تونس 1936 - 1939 " في أعمال الملتقى الثالث حول الحركات السياسية و الإجتماعية في تونس خلال الثلاثينات ، تونس 1987 ، ص ص 483 ، 484 .

³⁶ - Maquart (capitaine); "Etude sur tribu des Haouia" (territoire de Medenine), in Revue Tunisienne, 1937, pp 253-297.

- ماکار (نقيب)، "دراسة قبيلة الحوايا (أراضي مدنين)، المجلة التونسية ، 1937، ص ص 253-297.

³⁷ - الأرشيف الوطني ، السلسلة 6 ، الكرتون 3 ، الملف 23.

³⁸ - I.B.L.A., L'économie de la Tunisie, n°:67-68, Tunis, 1954.

يستعمل المكننة، فهناك من الأهالي من كان يقبل على استعمال الآلات الفلاحية³⁹، فمنذ الثلاثينيات بلغت درجة المكننة معدل جرار واحد لأقل من 45 هكتار من الأراضي المبدورة، ومعدل حاصدة واحدة ل 160 هكتار⁴⁰. وقد أدى هذا الاستعمال المكثف للمكننة إلى فائض في يد العاملة الفلاحية، والتي قد تحول جزء منها إلى يد عاملة أجيرة بينما اضطر البعض الآخر من العاطلين إلى النزوح نحو المدن، ولاسيما العاصمة حيث أرتفع عدد سكانها القادمين من الأرياف حسب تقديرات كلود ليوزو (Liauzu) من 172.000 نسمة في سنة 1921 إلى 249.578 في سنة 1936، وهي الفترة التي ظهرت فيها الأحياء القصديرية المحيطة بالعاصمة⁴¹. كما غيرت المكننة مهمة الهطاي من حصاد القمح ودرسه إلى جمع ما يسقط من آلة الحاصدة الدارسة من سنابل الحبوب على الأرض (الشواط)⁴²، غير أن البعض ظل يعمل في حقول القمح ذات الكثافة القليلة، وفي نفس الوقت حولت البطالة وجهة الهطاية من "افريقيا" إلى تونس العاصمة⁴³ بحثا عن شغل أو اللجوء إلى ديار التكية*. كما تقلصت صيغة الجمع للهطاية إلى صيغة المفرد، بحيث أصبحت الهجرة المؤقتة للبحث عن مورد رزق إضافي تهم الأفراد من الذكور فحسب.

و من هنا نستنتج تلاشي ظاهرة الهطاية تدريجيا بعد الحرب العالمية الثانية إلى فجر الإستقلال، فهل يعني ذلك أن الجنوب و الوسط أصبحا مناطق قادرة على إعالة سكانها زمن الإستعمار الفرنسي ؟ !

من الواضح أن هاجس "الحماية" الفرنسية الأول منذ انتصابها بتونس كان تحقيق خضوع قبائل هذه المناطق الحدودية، من خلال توفير الأمن على الحدود، و تشجيع السكان على

39- الأرشيف الوطني، السلسلة E، كرتون 591، الملف 2.

40- Poncet, la colonisation et l'agriculture européenne en Tunisie depuis 1881, la Haye, Paris, 1962, p 256.

- بونسي (جان) الإستعمار و الفلاحة الأروبية منذ 1881، لاهاي، باريس، 1962، ص 256.
41- عبد السلام دمق، "الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية لأزمة سنة 1929 في تونس"، في مصادر تاريخ الحركة الوطنية ومناهجه (1920-1954) نقلها إلى العربية حمادي الساحلي، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1991، ص 323.

42- شهادة إحدى المستجوبات بالحامة، صيف 2002.

43- محمد نجيب بو طالب، "هجرة العمل من قبيلة ورغمة إلى مدينة تونس 1881-1950" ضمن كتاب المغيبيون في التاريخ الاجتماعي، بيت الحكمة، تونس، 1993.
* دار التكية: "محتشد ضخم يتجمع فيه آلاف الناس من شيوخ و نساء و أطفال من المعوزين و الجياع و المعز و يضمن لهم القوت غير وفير من الشعير و قد كانت المجاعة تهدد الوسط و الجنوب و الساحل" جريدة العمل التونسي بتاريخ 14-1937-01.

الإستقرار، و لذا نرى السلط الإستعمارية مهمة برسم الحدود بين تونس و الجزائر، و بين تونس و ليبيا، مع تشديد المراقبة عليها مما حد من التحركات الكبرى بين تونس و الجزائر و ليبيا، و التي كانت في السابق رهينة نزول الأمطار وأوضاع المرعى، و في بعض الأحيان كانت النتيجة غير مرتقبة إذ استمرت التنقلات عبر الحدود في شكل محدود و سري. فقد جاء في شهادة إحدى نساء بني يزيد ممن مارسوا الهطاية سنة 1948: " بعد وصولنا إلى القلعة الجرداء لم نحصل على الحصاد ، فاتجهنا غربا إلى الأراضي الجزائرية و بالتحديد إلى أعالي مجردة، وقد انطلقنا بعد العشاء و قمنا بتكميم الإبل و ربط مناقير الدجاج و تسكيت الصغار، وقطعنا الحدود في الليل بالاتجاه المجهول"⁴⁴. و من ناحية أخرى عملت السلط الإستعمارية على توطين السكان بواسطة عدة إجراءات و مجهودات للتشجيع على تعاطي زراعة الحبوب على عين المكان و بعث نقاط مياه في الجنوب و إحداث مناطق إدارية و تجارية منها مدينة بنقردان مع التشجيع على التخصيص والغراسات قصد شد السكان⁴⁵. فضابط الشؤون الأهلية ماكار يعتقد : "إن الوسيلة المؤكدة لتثبيت الأهل في الأرض هي أن نصيره مالكا لقطعة أرض ... و سنعمل على تحريضه كي يزرعها و يغرس فيها الأشجار المثمرة كالتين و الزيتون و حتى اللوز و النخيل، و سنسعى في مرحلة لاحقة إلى حثه كي يشيد فسقية ثم بئرا و أخيرا منزلا ..."⁴⁶.

إلا أن الانتقال من الملكية الجماعية للأرض إلى الملكية الخاصة قد انجر عنه تكوين ملكية كبيرة و نشأة " طبقة كبار الملاكين العقاريين، في مقابل تفقير بعض العائلات وتحويلهم إلى بروليتاريا فلاحية أو طبقة كادحة"⁴⁷، تعيش الفقر و الخصاصة وحتى كبار الملاكين ليسوا في منأى عن ذلك فكثيرا ما يأتي الجفاف على ثروتهم الحيوانية و هي رأس مال سكان

44- شهادة إحدى المستجوبات في صائفة 2002 .

45- Mzabi (H), La Tunisie du sud -Est, Géographie d'une région fragile, marginale et dépendante, Université de Tunis I, 1993, p 134.

— حسونة مزابي ، تونس الجنوب الشرقي، جغرافية إقليم هش ، مهمش وتابع، جامعة تونس الأولى، 1993ص134.

46- Macquart (capitaine) ; op. cit... p 290.

— ماكار ،...، مصدر سابق، ص290.

47- عبد المجيد كريم ، " تنكك المجموعات الريفية تحت تأثير الإستعمار الرأسمالي"، في مصادر تاريخ الحركة الوطنية التونسية ... مصدر سابق، ص ص 329 - 404 والمقصود هنا بالطبقة الإجتماعية تلك التي تقوم على قاعدة اقتصادية (علاقات إنتاج وحيازة أموال) أما الفئات الإجتماعية فهي التي تتشكل على أساس أسلوب الحياة (نمط العيش) .

الجنوب و الوسط فيضطرون لبيع أراضيهم والتحول إلى خماسة أو رعاة أو هطاية أو قفازة* أو قبالة*.

و منها نستشف أن ظاهرة البروليتاريا الفلاحية هي ظاهرة جديدة ارتبط وجودها بوجود الملكية الفردية و تطورها، ذلك أن وجود من يملك ارتبط جديلا بمن لا يملك⁴⁸، غير أن هذا الذي لا يملك لا يختلف عن يملك في جذوره الإبتئية، مما يجعله مشدودا إلى ثقافة و عادات قديمة من التضامن القبلي في مجتمع إسلامي يقبل الفقير و يشجع على قضاء حاجة السائل⁴⁹، ورغم محاولة المستعمر إعادة تشكيل للعلاقات الإجتماعية في المغرب العربي ككل وفق تطور الرأسمالية الأوروبية لفائدته. فقد كان التحديث جزئيا لأساليب الإنتاج و أدواته بتوجيهه نحو السوق العالمي⁵⁰ في الوقت الذي استمر فيه تواجد نمط الاقتصاد التقليدي المعيشي، مما خلق ازدواجية في نمط الاقتصادي مثلما هو الحال بالنسبة للنظام الإداري و السياسي، و ربما هذا ما يفسر استمرار ممارسة الهطاية في ظل نظام الحماية رغم تراجعها لفائدة العمل المأجور في إطار تقسيم العمل بين الجهات، عوض تقسيمه داخل المجتمع المحلي أو تطبيقه على غير ما هو مرجوء منه. ومن هنا أصبح موقع الفعلي لفئة الهطاية داخل المجتمع يتقلص بتغير نمط العمل الزراعي و أشكال الاستغلال و التوزيع الجغرافي و العمري و الجنسي للعمال الفلاحين بصفة عامة، كما انخفض ما كان يتحصلون عليه مقابل بيع قوة عملهم بالتحول إلى الاقتصاد النقدي لا سيما في زمن ارتفعت فيه أسعار المواد الغذائية الأساسية كثيرا لازدياد الطلب عليها في الأسواق العالمية. و قد أدى ذلك إلى تدني أنماط الغذاء و السكن وتعمق الجهل و الأمية و نقش الأمراض في صفوفهم. فكانت حالة تزيف الوعي التي تكرر و تعيد إنتاج أشكال ثقافة سلبية و عفوية لحل مشاكلهم، في وقت ظهرت فيه أشكال جديدة للثقافة فتولدت عنها أزمة إجتماعية نتيجة التحولات في تركيبة قوة العمل و تسارع

* القفازة: وهم عمال فلاحون يقومون بجمع الزيتون أو جمع التمور .

* القبالة: وهم عمال فلاحون يسهرون على سلامة المبتوج الفلاحي المتأني من الماشية أو الطيور ...

⁴⁸ - عبد الباسط عبد المعطي، توزيع الفقر في القرية المصرية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1979، ص 6.

⁴⁹ - Boukraa (R); "Notes sur culture et pauvreté, le cas d'une cite populaire à Jendouba"; in Revue Tunisienne des Sciences Sociales, 8 éme année. N°27. Pb.CERES, Tunis, Dec. 1971; p 190.

— رضاء بوكراع، ملاحظات حول ثقافة و فقر، حالة حي شعبي بجندوبة"، المجلة التونسية للعلوم الإجتماعية السنة

الثامنة، عدد 27، سرس بتونس، 1971، ص 190.

⁵⁰ - محمد حافظ زياب، " علم الاجتماع في الجزائر: الصعوبة و السؤال " في المستقبل العربي، السنة 12، العدد 134 نيسان 1990، ص 85.

النمو الديمغرافي منذ الثلاثينات، وخاصة السياسية الإستعمارية الرامية إلى تفتيت بنى المجتمع القبلي عبر إدماجه في حضيرة الاقتصاد التبادلي والتعامل مع الهياكل الإجتماعية و الإدارية المحدثة وحثه على الإستقرار، فكان التخلي عن التنقلات الكبرى التقليدية و الاستعانة عنها بتحركات محدودة ، كما تحولت بعض مناطق الدفع إلى مناطق جذب كجهة جرجيس التي تقاطر عليها طالبو الشغل من عروش ورغمة⁵¹ كما أصبحت مناطق الجذب التقليدية شمال الظهيرية التونسية مناطق انطلاق لهجرة داخلية و أخرى خارجية لاسيما بعد الإستقلال .

ومن هنا يبدو أن الهطاية ظلت تمارس في ظل الإستعمار وإن تراجعت لفائدة نظام العمل بالأجر، غير أن هذه الظاهرة أصبحت غير مرغوب فيها في عهد دولة الإستقلال التي شجعت على الإستقرار والتحضر وتفضيل المدينة باعتبارها الإطار الأمثل للتطور و الحداث وإدماج القطاع الفلاحي في الدورة الإقتصادية العصرية وتمكين أكثر الفئات الريفية من الأرض دون القيام بإصلاح زراعي، وذلك من خلال تشجيع الملكية الفردية بحل الأحباس العمومية في 1956 والأحباس الخاصة والمشاركة في 1957 والتفويت في الأراضي الجماعية. فكانت التحولات في المشهد الريفي التي تحدث عنها جاك بارك، يمكن أن نعتبر اندثار ظاهرة الهطاية مؤشرا على تراجع نمط العيش و الثقافة التقليدية أمام مد مشاريع التحديث فاخفتت الهطاية مثلما اخفتت اليوم ألفاظ كثيرة من المعجم الفلاحي ومظاهر أخرى في علاقة بالترحال كبيوت الشعر (الخيمة) ... في الوقت الذي ظهرت فيه مظاهر جديدة من الحراك السكاني أفرزتها التغيرات في نمط الإنتاج و علاقاته تعكس عدم تناظر توزيع مشاريع التنمية بين الساحل و الداخل .

⁵¹ - فتحي ليسير، قبائل أقصى الجنوب ... مصدر سابق، ص 260 .